الأحنف بن قيس

للاستاذ احمد أمين

ضئيل الجسم ، صغير الرأس ، متراكب الأسنان ، مائل الذقن ، ناتئ الوجنة ، غائر العينين ، خفيف العارضين ، أحنف الرِّجل ، ليست خصلة تدل على قبح المنظر إلا وهو آخذ منها بحظ ، تنبو عن مرآه الاحداق ، وتتفادى من شخصه الأبصار ، وهو مع هذا سيد قومه ، سيد تميم ، وهي ما هي في العظمة — إن غضب غضب لغضبته مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب ، خطير النفس ، بعيد المرمى ، ما زال يسود حتى بلغ مرتبة لا يسمو اليها أمل ، ومنزلة لا يتعلق بها درك . اذا أوفد وال وفداً الى خليفة فالاحنف أحد الوفد أو رئيسه وخطيبه ، واذا اختلف الأمراء على الخلافة فالاحنف من أول من يفكرون في اصطناعه ، واذا حزب الامر ، وعظم الخطب ، فالاحنف من يفزَع اليه في المشورة — دوى اسمه بين المسلمين في الأحداث الأولى للاسلام ، وخرج منها على كثرتها وتعقدها واضطراب الاهواء فيها — نقي السيرة ، يقر بعظمته من كان له ومن كان عليه ، وظل اسمه علَما رفيعاً في نواح مختلفة على مر الازمان ، إن أُرِّخت الحروب الاسلامية فأحد قادتها وغزاتها ، وإن ذكرت الاخلاق فأحد أشرافها ونبلائها ، وان أرخ الادب والخطب والحكم والامثال فهو ابن بجدتها .

ولد قبل الاسلام ولكن لم ينل شرف الصحبة لرسول الله ، ووقف من أول أمره وهو فتى موقفاً يدل على قوة عقله وصدق نظره ، فان رسول الله (ص) أرسل رجلا الى بني سعد رهط الاحنف فجعل يعرض عليهم الاسلام ، فقال الاحنف لقومه : إنه يدعو الى خير ، ويأمر بخير ، فلِمَ لا نجيب دعوته ، وسرعان ما ساد تميما وهي قبيلة من أعز القبائل وأقواها وأشرفها ، كانت تسكن مساحة كبيرة من جزيرة العرب تشمل نجداً وجزءاً من البحرين وجزءاً من اليمامة ، وانقسمت تميم لكثرتها الى فروع كثيرة كانت تتعادى أحياناً وتتحالف أحياناً ، ولذلك لم يكن عجيباً أن يتهاجى الفرزدق وجرير شر هجاء ، وكلاهما من تميم ، ولكنهما من فرعين مختلفين — حاربت تميم نفسها ومن حولها في الجاهلية ، وشغلت حروبها أياماً كثيرة من أيام العرب . وكان لتميم راية في الحروب خاصة على صورة العقاب ، كما كانت راية بني أسد على صورة الاسد — ثم أسلمت وحسن اسلامها . ولكنها ارتدت أيام الردة الى أن ردها خالد بن الوليد الى الطاعة ، وكفرت عن ردتها بما بذلت من جهود في الفتوح ، حتى اذا تم الفتح سكن بعضها الكوفة وبعضها البصرة . وكان الاحنف بن قيس سيد تميم البصرة — وقد ظلت تميم في الاسلام وفيها ألوان كثيرة من ألوان البداوة . ومن هذا النوع من البداوة ما بدا من زعمهم الخارجية . فقد كثر الخوارج من تميم . وكان قَطَرِيّ بن الفُجَاءة وكثير ممن تبعه من الازارقة من قبيلة تميم .

وأنجبت تميم كثيراً من نوابغ الشعراء لا يعنوننا الآن . كما أنجبت كثيراً من السادة والاشراف والعظماء ، وكانوا سلسلة كسلسلة الذهب متصلة الحلقات يتعلم بعضهم من بعض خلق السيادة كما يتعلَّم العلم على الاساتذة ، وكان أستاذ الاحنف ابن قيس في السيادة « قيس بن عاصم » المنقري التميمي الذي قال فيه رسول الله (ص) لما رآه « هذا سيد أهل الوبر » وقد قيل لقيس هذا : صف نفسك . فقال أما في الجاهلية فما هممت بملأمة . ولا حُمِلْتُ على تُهَمة ، ولم أر إلا في خير مغيرة أو نادي عشيرة . أو حامي جريرة . وأما في الاسلام فقد قال الله تعالى : « ولا تزكوا أنفسكم » وقد نزل في البصرة كتلميذه الأحنف . وتعلم الأحنف منه الحلم . ولما مات قال فيه القائل :

عليك سلام الله قيس بن عاصم
ورحمته ما شاء أن يترحما

وما كان قيس هلكه هلك واحد
ولكنه بنيان قوم تهدَّما

خلف الاحنف قيساً في السيادة . وكان أبو موسى الاشعري والياً على البصرة فبعث بوفد منها الى عمر بن الخطاب فكان

الاحنف أحدهم وخطب بين يدى عمر يسترعيه النظر لأهل البصرة . فاعجب به عمر وقال « هذا والله السيد ! » فدوت هذه الكلمة فى الانحاء .

أكثر الواصفون فى ذكر الاحنف ومزاياه وسيادته ، والسيادة أنواع ، وقد ترى لكل سيد طاعماً لا تجده فى سيد آخر ، ولكل سيد نقطة تتركز فيها عظمته قد لا يشركه فيها سيد آخر ، فسيدٌ عظمته فى شجاعته ، وسيد عظمته فى سخائه وسيد عظمته فى قول الحق يجهر به والسيف على رأسه ، فان نحن سئلنا عن مركز العظمة فى الاحنف ، فعظمته كانت تتركز فى خصلتين تتصل إحداهما بالاخرى اتصالا وثيقاً : أنه منح نظراً صائبا يتعرف به المحاسن والمساوى ، ومعالى الامور وسفسافها ، وقلّ أن يخطىء فى ذلك ، ثم منح الى ذلك ارادة قوية يحمل بها نفسه على ما أدرك من معالٍ ومحاسن مهما كلفه من مشقة وحمّله من جهد ، فلو علم أن الماء يفسد مروءته ماشربه ؛ وهى - كما ترى - نقطة ارتكاز يحمل فوقها كثير من الفضائل ، على حين أن نقطة الارتكاز عند كثير من السادة لا تتحمل الا فضيلة واحدة .

وهذا يفسر كل ماروى عن الاحنف ، كان لا يعبأ بالمال ، وكان لا يعبأ بالحياة ، وكان يفر من الشرف والشرف يتبعه ، وكان يخضع للحق اذا لزمه خضوع الذليل المستخذى ، واذا كان الحق بجانبه دافع عنه دفاع المستأسد الضارى ، يقف أمام على وأمام معاوية وأمام زياد بن أبيه فيجهر بالحق الصريح من غير مجمجة ولا مواربة ولا يبالى ما بعده

تولى فى زمن عمر بن الخطاب فتح خراسان فدوخ الفرس وملكهم يزدجرد ولقى من الحروب ما تشيب من هوله الولدان ، ولكنه صبر وظفر ، وأنجد ملكَ الفرس الترك وأهل فرغانة والصغد فلم يكن فيهم أمام الاحنف وجنده غناء

ووقف الاحنف العربى البدوى وليد الصحراء فى شملته يطارد يزدجرد المتوّج ربيب النعمة ، وعصارة المدنية ، وسليل الاكاسرة ، ونتاج الحروب المنظمة بين فارس والروم ، فى العدد والعديد ، والجنود والبنود ، فظفر التميمى بسيد فارس وطارده حيثما حل حتى جاوز حدود بلاده وخرج منها لا الى رجعة . وأقبل أهل فارس - كما يقول ابن الاثير - على الاحنف فصافحوه ودفعوا اليه الخزائن والاموال وتراجعوا الى بلدانهم وأموالهم ، على أفضل ما كانوا عليه زمن الاكاسرة ، واغتبطوا بملك المسلمين .

فلما نشبت الحرب بين علىٍّ ومعاوية رأى الحق فى جانب علىّ فانضم اليه بقومه ، وأعان عليا بسيفه ورأيه ، فاشترك معه فى حرب صفين ونصحه ألا يكون أبو موسى الاشعرى حكما ، وظل مخلصاً له العمل والقول حتى قتل علىّ . ودانت البلاد لمعاوية فاطاع معاويةَ فى شمم وإباء ، فقد دخل عليه يوماً فقال له معاوية : أنت الشاهر علينا سيفك يوم صفين ، فقال له يامعاوية لاتذكر مامضى منا ، ولا ترد الامور على أدبارها ، فان السيوف التى قاتلناك بها على عواتقنا . والقلوب التى أبغضناك بها بين جوانحنا ، والله لا تمد الينا شبراً من غدر الا مددنا اليك اليك ذراعا من ختر ، وان شئت لتستصفين كدر قلوبنا بصفو من عفوك . فقال له معاوية فانى أفعل ، ثم استرضاه ومن معه

ولما أراد معاوية ان يبايع لابنه يزيد أخذ الناس يتكلمون فى مدح يزيد والثناء عليه ، ويمدحون معاوية على عمله والاحنف ساكت ، فقال له معاوية ، مالك لا تتكلم يا أبا بحر وكانت كنيته ، فقال قولته المشهورة : « أخاف الله ان كذبت وأخافكم ان صدقت » فكانت كنايته أبلغ من التصريح

ويظهر انه بعد ان قتل علىّ رأى من المصلحة للمسلمين ان يشايع الامويين ، فأن هذا أقرب الى الوحدة وأدعى الى الالفة حتى مع مافيه من ظلم أحيانا وطغيان احيانا ، يدل على ذلك تاريخه وقوله فقد استنصره الحسن بن على على معاوية فلم يجبه وقال « قد بلونا حسنا وآل حسن فلم نجد عندهم ايالة الملك ولا مكيدة الحرب » - وكان بينه وبين عبدالله بن الزبير جفاء . فلم يشايعه فى الخروج . ورأيناه ينصح قومه من تميم أرادوا ان ينضموا الى ابن الزبير الا يفعلوا

ولكنه كان يطيع الامويين وولاتهم طاعة الحازم العاقل ، يتقدم فيما يرى ويمحضهم النصح فى صدق واخلاص ،

وله موقف مع زياد من خير المواقف أثرا فى تاريخ الاسلام ، فقدم زياد ان يقتل الموالى لكثرتهم ومزاحمتهم العرب فاستشار الاحنف فقال بان ذلك ليس لك . ان رسول الله لم يقتل من الناس من قال لا اله الا الله وشهد أن محمدا رسول الله وانهم غلة الناس ، وهم الذين يقيمون أسواق المسلمين ، أفتجعل العرب يقيمون أسواقهم قصابين وبسارين و حجامين ؟ فأذعن زياد لرأيه ونزل على اشارته ، ويقول الاحنف انه مابات ليلة أطول منها خشية ان ينفذ زياد فكرته

ووقف فى البصرة موقفا بديعا يصلح بين القبائل المختلفة المتعادية من الازد وبكر وعبد القيس ، ويبذل من ماله ديات لما يقع من القتل حتى يلتئم صدعهم ويجتمع شملهم ويعيشوا فى البصرة عيشة هادئة مطمئنة

لقد عابوا عليه أنه ذكر أمامه الزبير بن العوام عندما ترك القتال يوم الجمل ومر ببنى تميم فعابه الاحنف وقال جمع الزبير بين الناس يقتل بعضهم بعضا ويريد ان ينجو الى اهله ! فتبعه رجل سمع هذا القول فقتله ، فقال الناس ان الاحنف قتل الزبير بكلامه

كما عابوه بأنه كان سميعا مطيعا لجاريته « زراء » حتى كان الناس يكنون عن وقوع الحرب بقولهم « غضبت زراء » لانها اذا غضبت غضب الاحنف ، واذا غضب الاحنف شرعت الاسنة وانتضيت السيوف

ولكن أى عظيم لا يعاب ؟ وكفى الاحنف نبلا أن كانت عيوبه من هذا القبيل لا تخدش شرفا ولا تجرح عرضا

وللاحنف ناحية أخرى بديعة هى ناحية أدبية غزيرة أمدت كتب الادب العربى بغذاء صالح قوى ، هو ما روى عنه من جمل حكيمة جمعت الى حسن اللفظ وقوته ، جودة المعنى وصحته ، ونضحت عليها صفات الاحنف النبيلة الشريفة وكانت خلاصة لحياة حافلة بالتجارب . كانت هذه التجارب والمعانى فى دماغ ارسطو اليونانى الفيلسوف فصاغها صياغة علم وفلسفة ، وكانت فى دماغ الاحنف بن قيس العربى البدوى فصاغها فى شكل حكم وأمثال وجمل موجزة ، تحمل معانى غزيرة ، فكان لكل مزايا منهجه فى النظر ومنهجه فى القول

لقد رسل الاحنف فى الاسلام مابدأ به أكثم بن صيفى من الحكم فى الجاهلية ، وزاده الاسلام غزارة وفيضا . وكانت حياته العملية من حروب واتصال بالسلطان والولاة وخبرة بالناس ونزاعهم وأنظارهم ، وسيادته وكثرة سؤال الناس له عما سوده - مددا صالحا يستقى منها حكمه وأقواله ، من مثل قوله : أنصف من نفسك قبل أن ينتصف منك ، ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة ، شريف من دنىء ، وبر من فاجر ، وحليم من أحمق . لا خير فى قول إلا بعقل ، ولا فى منظر إلا بخبر ، ولا فى مال إلا بجود ، ولا فى صديق إلا بوفاء ، ولا فى حياة إلا بصحة وأمن - ومن حق الصديق أن تحتمل له ثلاثا : ظلم الغضب ، وظلم الدالة ، وظلم الهفوة . الخ الخ وله أقوال فى الولاة وفى الصداقة وفى السؤدد وفى مكارم الأخلاق مئات بها كتب الادب ، تدل على صدق نظر ، وصحة تجربة ، وقدرة على صياغة ذلك فى جمل رصينة

من أجل هذا كله نال عند الناس منزلة قل أن يطمع فيها طامع . يعجب الناس بعقله حتى يقول سفيان : ما وزن عقل الاحنف بعقل أحد إلا وزنه ، ويعجبون بسيادته وهيبته حتى يقول القائل :

إذا الابصار أبصرت ابن قيس ... ظللن مهابة منه خشوعا

فلله الاحنف قائداً فى الحروب لا يبارى ، ولله الاحنف سيداً فى قومه مطاعا ، ولله الاحنف حكيما مجربا ، ولله الاحنف بليغاً مفوها - ولله السعدية إذ رثته فقالت : « نسأل الله الذى ابتلانا بموتك ، وفجعنا بفقدك أن يوسع لك فى قبرك ، وأن يغفرلك يوم حشرك ، فلقد عشت مودوداً حميدا ، ومت سعيداً فقيدا ، ولقد كنت رفيع العماد ، وارى الزناد ، ولقد كنت فى المحافل شريفا ، وعلى الارامل عطوفا ، ومن الناس قريباً ، وفيهم غريبا ، وإن كانوا لقولك مستمعين ، ولرأيك متبعين . رحمنا الله وإياك »

لقد عمر طويلا ومات سنة ٦٩ هـ ودفن بالكوفة فرحمة الله عليه ؟